الفصل السادس

رنية

بعد خروجنا من سهل معشر الذي انتهى على بعد أربعة أميال من معسكرنا، واصلنا سفرنا فوق أراضي نواصف ونصيف، الصعبة العامرة بالشجيرات،والتي كانت أسطحها مخدشة بالمجاري الضحلة المنحدرة من الأراضي المرتفعة ومن السلاسل، على يميننا، إلى منخفض غرميل. واشتق اسم سهل الصخور البركانية العظيم اسمه من هذين الموقعين، إذ يدعي: حرة نواصف. الاسم الأول «نواصف» هو صيغة الجمع للثاني وهو «نصيفة». وتعني كلمة نصيفة بالمناسبة، استراحة منتصف الطريق، أو الخط الفاصل -ربما- بين محافظة الخرمة من جهة ومحافظة رنية من جهة أخرى. امتدت الأرضان إلى حوالي ١٣ ميلاً، لينتهيا عند منخفض، مشجر، ضحل يسمى سرجوج الذي يجري نحو الرمال الشرقية من قمة صفراء. يقوم نواصف بتصريف سلسلة أبي سنون من الجانب القريب من الصخور البركانية بينما تنحدر نصيفة من هضبة نعمي داخل الحزام البركاني.

وصلنا إلى مجموعة من هضاب مبعثرة مباشرة فيما يلي وادي سرجوج، - الذي يبلغ عرضه ثلاثة أميال -، وتسمى هذه الهضاب يعايم -جمع يعومة-. كان سبعة منها تقع في أرض ذات أعشاب وشجيرات منخفضة، قمت بتسلق قمة إحدى هذه الهضاب وكان ارتفاعها حوالي ٢٠٠ قدم، وتسمى جنوبية. ورأيت من قمتها، العلامات الأرضية نفسها كتلك التي وصفتها عند قمة عقير إلى جانب أخريات. منها الهضبة الحادة القمة المسماة مخيات الواقعة في رمال عرق سبيع،

إلى جانب مجموعة هضاب صغيرة، تسمى وضيفين وتقع إلى الشمال الشرقي من موقعنا، ظهرت ملامح باهتة لجبل بعيد في الاتجاه نفسه وفي مرتفعات وسط نجد يدعى حوضة. نستطيع الآن رؤية سلسلة سللي على الجانب الأيمن لوادي رنية الذي يقع أسفل الواحة. أفادني دليلي أن موقع شرب الماء يقع قريباً من سلسلة حزوة الرملية في العرق. كما توجد أيضاً قمم في سلسلة جبال مضحور إلى يسار كتلة المصلوخ، كما أمكننا أيضاً رؤية تل تغروه المنخفض البارز على الجانب القريب إلى رنية، وظهرت من خلفه علامات بارزة هي: ورك منيرة، والخثعمي والقمة المسطحة لهضبات الشريف وسلسلة عير الأسويد، والتي يجيء من خلفها، وإلى امتداد المسافة نفسها التي تفصلها عن وادي رنية. ينطلق مجرى وادي بيشة، ملتقى هاذين الواديين، من مكان ما خلف سلسلة سلي ليتحد مع ثالث هذه الأودية الجنوبية العظيمة، وهو تثليث عند أو بالقرب من حوض حجلات المخاتمية حيث يبدأ وادي الدواسر العظيم. كانت طبيعة هضبة جنوبية من جرانيت أحمر غير أنه وحسب ما أستطيع من حكم، فقد كانت كل رفاقها من الصخور المحيطة في اليعايم بازلت داكن اللون.

استمر سيرنا فوق سهل واسع ذي حصا ناعم وغطاء نباتي فقير. إذ لم تكن هنالك سيول في هذه المناطق المجاورة خلال الشتاء، وتبدو، بلا شك، جافة جداً ومهجورة. وصلنا بعد فترة إلى سهل جزعة، الذي تصب عبره مرتفعات كور المجامع تجاه حزوه. وجدنا أنفسنا، بعد أن قطعنا مسافة ٤٥ ميلاً، من عند معسكرنا في معشر، ندخل أرضاً تقع بين المصلوخ على يسارنا، وكور المجامع، على يميننا. كان عرضها حوالي الميل الواحد فقط، وكنا، في هذا الموقع، قريبين لأرض مرتفعات المصلوخ، وقد كانت شامخة فوق رؤوسنا. بدأنا أيضاً نرى منازل

ونخيل رنية على مساحة ليست بالبعيدة. ثم قمنا بعد استراحة قصيرة في هضبة رزيزة للاستمتاع بالمنظر الممتد أمامنا، قبل أن نصبح جزءاً منه، بتكملة بقية الأميال الثمانية -كان إجمالي المسافة ٥٣ ميلاً من معشر و٩٢ ميلاً من الخرمة-، لنصل إلى باب قصر ابن صامل مقر الأمير المحلي، وذلك عند الساعة ٤,٣٠ عصراً.

قمت وبصحبتي ابن فرج بمقابلة الحاكم، وهو من أبناء الرياض، اسمه حسن ابن دغيثر[١]، بينما كان رفاقنا يهيئون المعسكر ويشرفون عليه. تم تعين الحاكم لهذه الوظيفة قبل عام بدلاً عن الشريف المحلي - ابن صامل والذي لم ينازع حتى ذلك الوقت في حقه الوراثي في السيطرة على الواحة والمنطقة. يتعرض المسئول المحلي دائماً إلى العجز المتعلق بالشجار الشخصي والعائلي والغيرة، وأصبح من سياسة ابن سعود أن يستبدل أصحاب المقام الرفيع المحليين بموظفين آخرين يختارون من طبقات موظفي الدولة المدنيين المتزايدة، كان الاعتراض الوحيد ضد التغيير، وما يزال، هو احتمال أن يتم إغراء هؤلاء الموظفين أو انتهازهم الفرص الواضحة لابتزاز المال والاختلاس لزيادة رواتبهم ولكن، وبصفة عامة، فإن النظام يعمل بصورة مرضية بما فيه الكفاية، ذلك لأن الملك كان يشرف بنفسه على النظر في كل الشكاوى المرفوعة ضد ممثليه في المناطق وكان لا يتردد في إبعاد الموظفين ذوي الأداء غير المرضي. وقد يستبعد مثل هؤلاء الموظفين أحياناً بحجة أنهم أصبحوا

(١) هو حسن بن محمد بن حسن بن عبدالعزيز بن دغيثر، تولى إمارة الوجه سنة ١٣٤٧هـ (سنة السبلة) كما أفاد بذلك الأستاذ عبدالعزيز الدغيثر، ثم ولاه الملك عبدالعزيز رئاسة المدد المكون من أهل العارض والذي أرسل إلى الجنوب سنة ١٣٥٢هـ. وكانت وفاته في الوباء الذي حل في رنية سنة ١٣٦٠هـ، كما قال بذلك الشيخ محمد بن فالح البرقي، وليس له عقب -رحمه الله-.
لمزيد من المعلومات انظر: منطقة تثليث وما وحولها لعمر غرامه العمروي، ص٨٧، وجريدة الجزيرة، ع٧٨٢٧، الجمعة ٢٢ رمضان، ١٤١٤هـ. (المراجعون)

محبوبين جداً محلياً، على مبدأ أن الرجل الذي ينجح في نيل إعجاب كل شخص، لا بد أن يكون فاشلاً في أداء واجبه، بطريقة ما، إذ أنه ربما يكون لين الجانب في تحصيل الضرائب أو في تنفيذ الجزاء على المذنبين.

يوظف ابن صامل وقته الآن وبعد أن أصبح حراً بسبب ابتعاده عن واجباته الوظيفية، في الحياة في الصحراء كما كان يفعل معظم رجال المدن أشباه البدو، غير أنه كان غائباً في هذا الوقت لسبب خاص. فقد ظهرت حمى الواحة، التي ذكرتها من قبل في حديثي عن الخرمة، في رنية، وأي شخص يستطيع أن يرحل سراً يفعل ذلك هرباً من الوباء. سقط الكثير من الناس بالحمى، غير أنه لم يكن عدد الوفيات كبيراً. لا يزال هنالك كمية كبيرة من المياه الجارية في الوادي، وحقيقة فهناك نهر جارٍ من الواحة الرئيسة (روضة) إلى عمير وما وراءها إلى درجة أن الوادي يمر مخترقاً سلسلة سلي في طريقه إلى الصحراء.

قابلني الحاكم بمزيج غريب من التحفظ والترحيب. كما بدا لي وكأنه كان يحاول أن يعترض بكتفيه موقع قُبلتي التقليدية على الجبين والتي كانت هي التحية التي يتلقاها الملك وممثلوه من الزوار. أو لعله نفر من رائحة التبغ حول ذقني غير أنني أحس بأنني قد تخيلت هذا التحفظ، ذلك لأنه لم يكن هنالك شيء ناقص في مودته وفي محادثته أو في رغبته الواضحة للمساعدة بعمل أي شيء لتحريك مغامرتي. بدا هذا حتى في لباقة تقديم أول كوب للقهوة والشاي إذ كان الضيف هو الذي يخدم قبل المضيف وهو الحاكم. كان من ضمن من حضر الحفل أحد التابعين الوفيين للأمير فيصل، عبيد بن جرش، وكان في إجازته وقد قدم من مكة. يمتلك عُبيد منزلاً في قرية حزيميات بجوار الروضة وعلى حافة الوادي، حيث دعاني في اليوم التالي، إلى تناول فطور خفيف من تمر محلي وخبز من البر

على هيئة الدوائر الرفيعة، ولبن رائب. كان بعض الضيوف الذين دعاهم لمقابلتي، من الضحايا الحديثين للحمى، كما يبدو عليهم، فقد كانوا كسولين وكان لونهم مريضاً مصفراً. أفادوني بأن الحمى تتكرر في أيام متبادلة، وأصر أحد الضيوف على أن يكشف لي عن بطنه المنتفخ برغم أنه ذكر أنه لا يحس بأي آلام. ولما لم يكن معي دواء الكينين، لم يكن بوسعي إلاَّ أن أنصحه بزيارة الطائف لمراجعة الأطباء هناك.

ذهبت إلى المعسكر بعد مقابلتي الأولى مع الحاكم لأخذ حماماً منعشاً بالماء البارد وأغيِّر كامل ملابسي. كان اليوم شديد الحرارة، وكنا بالفعل بلا طعام على امتداده، عدا تمرات قليلة، وكان أسوأ ما لدينا من أمر هو شح الماء المتوافر لدينا، إذ إن ما كان متوافراً قد تم صرفه في تشغيل الشاحنة التي حدث بها تسرب للماء في الراديتر، كما أن مرافقيَّ الستة كانوا لا يترددون في شرب الماء متى ما أحسوا بالعطش. بقى الآن، في حوزتي، على أي حال، ما مقداره أربعة جوالين ماء كاملة تكفي لحاجة الوضوء، وأحسست بالراحة حينما حضر مدير ضيافة الأمير لدعوتنا لتناول العشاء في المنزل الحكومي. كان العشاء ممتازاً -على عكس الوجبة سيئة الطبخ التي تناولناها في الخرمة- اشتمل على حمل طري اللحم مطبوخاً بروعة، وقد وضع أمامنا على كوم من الأرز المعالج بمسحوق الليمون الناشف. كان العشاء لذيذاً. وكما جرت التقاليد، فقد عدنا إلى خيامنا مباشرة بعد مشاركتنا للطعام، أرسل لنا الأمير في الصباح التالي زوجاً من الأغنام، إحداهما كانت لوجبة الغداء في معسكرنا الخاص.

اقتلعت عاصفة قوية خيمتي غير أنها كانت قصيرة المدى، وذلك حينما كنا بعيدين نتناول وجبة العشاء في ليلتنا الأولى تلك، كان يصحب العاصفة زخات

من مطر قليل وذلك للتحذير، كما كان هنالك الكثير من لمعان البرق من فوق الجبال دون صوت رعد يسمع. كان المساء مغطى بالسحب بصفة عامة، ولذلك فقد تأجلت ملاحظاتي لدراسة الطقس إلى يوم الغد، وكنت سعيداً حينها بذهابي للنوم قبل الموعد المعتاد. كانت هنالك أسراب للحشرات تجول حول مصباحي، كما كان الحال في معشر، خاصة خنافس الروث، التي كان المرء يلتقط صوت قدومها من بعيد كأنه أزيز الطائرة. لم تتكرر زيارة الأوروبيين إلى رنية. أول من فعل ذلك كان ليوبولد فايس وهو استرالي (نمساوي) مسلم وصحفي وقد قضى ليلة هنا في عام ١٩٢٧م.

لقد زرت المكان مع الملك في حملة صيد في عام ١٩٣٤م. ومباشرة قبيل هذه الزيارة الثانية لي. عَبر أحد مهندسي المناجم لشركة التعدين العربية السعودية بالسيارة من هنا في طريقه إلى بيشة، ومنها إلى بلاد غامد حيث تم استقصاء إمكانية وجود منجم ذهب آخر. ويبدو أن الموضوع لم يكن واعداً. بذلت محاولة إلى الوصول إلى المكان بالسيارة من تربة على الجانب الآخر من حقل الصخور البركانية، غير أن السيارة انتهت إلى مصير محزن. وقد زعم أن السيارة سلكت الاتجاه المعاكس لدرب إبلي لعام ١٩٣٢م من بيشة إلى تربة ولا يعرف تماماً كيف وقعت المتاعب التي أدت إلى كسر النابض. كان المهندس الذي أشرت إليه، في طريقه للإنقاذ، بينما بدأ رفيق له -على ظهر جمل- الرحلة من تربة للغرض نفسه.

يقدر أن يستغرق درب الإبل المباشر من رنية إلى الخرمة مدة ثلاثة أيام عبر الحرة، وحيث تكون المرحلة الأولى إلى فوهة صفراء والمرحلة الثانية إلى بئر جويف بالقرب من شعيب حثق، والمرحلة الثالثة إلى الخرمة. يتجه طريق تربة غرباً إلى

الممر الأسفل للريع وهو معلَّم بتل هرمي بارز يقع على يساره، ثم يعبر منه إلى هضاب منخفضة تسمى أناصب في سهل وادي بحرة المنخفض. يدخل الطريق بعد ذلك إلى حقل الحمم البركانية، متوجهاً ناحية الغرب، ماراً بالجانب الشمالي لفوهة هضيب ويصطدم في نهاية الأمر بطريق بيشة – تربة الذي كنت قد سلكته في رحلتي عام ١٩٣٢م، تستغرق هذه الرحلة بالجمال حوالي أربعة أيام أو أقل.

قضيت أحسن أوقات الأيام الثلاثة وأنا أتجول في واحة رنية. إلى جانب الارتحال حول القسم الأوسط للواحة والفحص التفصيلي لقسم ضرم من الواحة، تجاه أعلى الوادي، فقد قمت بمسح كل المشهد من قمم لثلاث هضبات تسيطر على منظر ممتاز، هي هضبة رزيزة في طريق الدخول، قمة تغروه الجرانيتية والتل المحدد، الريع الذي سبق ذكره، في طريق الخروج.

لقد عبرت وادي رنية في عام ١٩٣٢م إلى مسافة طويلة اتجاه أعلى الوادي في الواحة. ثم يهبط الوادي من تلك النقطة، كما يرى ذلك عند قمة الريع –يرتفع إلى ٥٠٠ قدم–، بين سلسلة شايل على جانب الوادي الأيمن، ومجموعة هضاب صغيرة مبعثرة على حافة الحمم البركانية على الجانب الآخر. كانت الأرض المرتفعة في زاوية شايل هي الأقرب إلينا، وتبعد حوالي ثلاثة أميال، بينما يفصلنا عنها سهل بحرة على جانب الوادي الأيسر، بينما يفصل سهل مماثل الجانب الشرقي لشايل عن سلسلة كور الرئيسة إلى الجنوب البعيد حتى تل حشرم. يطلق على الهضبات التي على الجانب الأيسر المشار إليها اسم أناصب وسبعنات، بينما إلى البعيد في حقل الصخور البركانية وأمام هضيب يقف تل وسيم الصغير بجوار بئر يسمى قلب الحسا. كانت أولى الهجر في واحة رنية عند النهاية أعلى الوادي هي قرية الأملح الصغيرة ومزارع نخيلها وتبعد حوالي ميل ونصف الميل من موقع

المعاينة. كما تقع قليلاً إلى أسفلها الجرثمية وهي هجرة مشابهة، وعن طريقها يصب مجرى بحرة في الوادي الرئيس، يسكن هاتين القريتين عناصر تنتمي إلى سبيع: ومساحيل (مشاعبه) وصنادلة وآل محمد ومفاحله. لا بد وأن يكون موقع قرية الأملح على بعد سبعة أميال عكس اتجاه الوادي من هذا المركز، طالما كانت هضبة الريع على بعد ستة أميال من قصر الأمير.

يشق الوادي طريقه عبر الحاجز الصلد لسلسلة الكور على مسافة قصيرة أسفل الجرثمية، في ممر يسمى خنق المضيق، لا يزيد عرضه عن ٥٠ ياردة في بعض الأجزاء بين كتل جرفية عالية حادة وبازلتية. يسمى الكور ناحية الشمال باسم المجامع والذي يقع ناحية الجنوب باسم برحة. لا يزيد طول هذا الممر عن ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة، وتقوم عند نهايته الشرقية مزرعة نخيل صغيرة في خليج ضحل ينتهي إلى صخرة منعزلة ضخمة، تضيق عنق الوادي إلى أقل من ٥٠ ياردة. تبدأ مجموعة من قرى صغيرة ومن مزارع، مباشرة أسفل هذا الموقع، تسمى ضرم. كما تسمى مزارع نخيل خنق والصخرة اسم سوله وتبعد أقرب قرى مزارع نخيل الضرم مسافة ٢٥٠ ياردة مع اتجاه أسفل الوادي إلى المضيق، وعلى جانب الوادي الأيمن يوجد مقابل وهي قرية كبيرة غير منظمة ذات مساحة معتبرة لزراعة النخيل. تقع على الجهة المقابلة لها، وعلى الجانب الأيسر، قرية سويدة الصغيرة وهي عبارة عن قريتان صغيرتان داخل حزام نخيل متعرج، وتقع الحرف أسفلها. يمر طريق السيارات عبر هاتين القريتين، ثم يعبر الوادي، الذي كان يجري فيه الماء في هذا الوقت بين مقابل وسولة. توجد قرية ومزارع القاعية قليلاً أسفل الحرف وأيضاً على جانب الوادي الأيسر، لتكملة الصورة الرثة للضرم. يسكن كل هذه القرى الصغيرة فخذ المجامعة من سبيع.

تمتد مساحة كبيرة من السبخة -سهل ملحي ناعم- فيما يلي هذا الموقع، على جانب الوادي الأيسر، وإلى مسافة تجاه الشمال، بينما، على الجانب الآخر، يوجد سهل صحراوي مرتفع يمتد من سلاسل منفصلة ومنخفضة تحيط بكور برحة. يفصل الضرم عن الواحة المركزية فجوة يبلغ طولها الميلين، وتوجد في الواحة المركزية قلعة الأمير التي تقف منعزلة ومنفصلة عن القرى الثلاثة: حزيميات، والروضة وسوق -وهي مجموعات من المنازل وساحة مركزية للسوق-. توجد مزرعة منعزلة وحديثة تسمى غرس بن ضفر تقع على مسافة ربع ميل في اتجاه أعلى الوادي وفي داخل هذه المجموعة، كما يوجد إلى أعلى منها مزرعة سيئة الحال تسمى مرجة وهي أكثر نقاط الواحة قرباً إلى الضرم. ويقع نخيل ملحة -أخيراً- على مسافة نصف ميل -تجاه الشمال- في أرض مالحة بعيداً عن الوادي. لا يسكن أحد داخل مزارع النخيل الثلاثة الأخيرة، ويقوم بزراعتها والاهتمام بها مستأجرون يجلبون من قرية سوق. تعد الروضة قسماً ثالثاً لسوق أو سوق المراغين وهذا اسمها الكامل. يتفرع فخذ المراغين من سبيع، ورئيسها هو عبدالله بن قطنان من فخذ القطانيين. يلاحظ أن قرية حزيميات منفصلة، ويطل قصر الأمير بارزاً فيها عند طرفها الشمالي. تمتلك هذه المجموعة من القرى عدداً من مزارع النخيل الواسعة التي تمتد مسافة معتبرة على طول الوادي وتكون أكثر وضوحاً ناحية الشمال.

يجري الوادي هنا من جهة الغرب إلى الشرق ويمر بقمتي سبعنات -موقعان خلفيان يقعان على مسافة ميل واحد من جانب الوادي الأيمن-، متجهاً إلى القسم الأخير للواحة، يسمى إجمالياً العمايز ويقع على بعد الميلين أو أكثر تجاه مجرى الوادي. تشتمل العمايز نفسها التي تقع على الجانب الأيسر على قسمين هما:

عطف إلى الغـرب -يمتلكهـا الوزران من سبـيع- ومضـل إلى الشرق -ويمتلكهـا الشماسات التابـع للقبيلة نفسها-. يفصل بين القسـمين حاجز رملي، بينما، وإلى مسافة ربع الميل إلى الشمال منهما توجد أرض ذات كـثبان رملية منخفضة قيل إنها تخـفي في ثناياها بقايا قـريتين قديمـتين. تقع في الاتجاه المقـابل للعمـاير، وعلى الجانب الأيمن للوادي قريتـان صغيرتان مع مزارع نخـيلهما. تسمى الغربيـة منهما ويبني، ويملكها السودة سبيع وتسمى الشرقـية العثيثي ويملكها ابن بطحان وهو من آل محمد.

كما توجد إلى ما وراء هذه المجموعة، وتجاه الشرق، قريتان أو مزارع نخيل، كما يبدو أن الوادي يجري فوق كثبان رملية متدهورة برغم وجود شريط طويل من غطاء نباتـي أخضر في بطنه حين يـحتضن جـانب وادي سلي. يمر الوادي وعلى مسافة ستة أميال ناحية الشرق بتل يسمى أبرق مردغة وهو منخفض تكسوه الرمال من أقصى الطرف الجنوبي لرمال عرق سبيع والتي يتقابل في مكان ما، فيما يليها، واديا رنية وبيشة. يعبر طريق الجمال العادي من رنية إلى وادي الدواسر قليلاً ناحية الجنوب الشرقي إلى سلسلة جبال ضلفـة جنوب سلي، حيث تنتهي المرحلة الأولى هنا، ويصل المسافـر في يومه الثاني إلى بئر يسمى بحـير فيمـا وراء سلسلة جبال جدير الحشيشي في منطقة النفـود -ربما امتداد لنفود الدحي-. تكون المرحلة الثالثة هي الوصول إلى حـضيب عـبر حوض حـجلة المخاتمية، وفي الـيوم الرابع يصل المسافر إلى اللدام.

كـان من أبرز السمـات في هذه البلاد المتـفرقـة التليـة التي تقع إلى جنوب الوادي، سلسلة أبو كولان البـازلتية والمحززة والتل الـرملي المكوّر المرتفع ويسمى

قوز أبي الرفوف كما يسمى أيضاً حمّن. تبدو قمة الأول وكأنها مشط ساقط على ظهره مع بروزان صخريان كالأبر النحيلة ممتدة في استقامة عند الوسط. ويدل اسم الثاني على الرمال المغنية، وسأصف، في وقت لاحق، تجاربي حول هذا. كان ارتفاع كتلة تغروه الشاخصة، التي التقطنا من فوق قمتها مشهداً جيداً لهذه السمات، وهي قمة ترتفع حوالي ٢٠٠ قدم فوق مستوى السهل وتبعد حوالي ميلين ونصف الميل عن معسكرنا.

كما تحصلنا، من فوقها أيضاً، على أحسن المناظر للبلاد التي تقع بعيداً تجاه الشرق، برغم أن مستوى الرؤيا لم يكن جيداً، وقد بدت الكتل الجبلية العظيمة لوسط نجد تشاهد في خفوت عبر الغيم الخفيف. توجد أولاً، وأمام عرق سبيع هضبات صغيرة عديدة، عادة سوداء اللون، وفي مجموعتين تقعان إلى شمال الشمال الشرقي وتسميان وضيفين وبني وريدة. يشمخ العرق نفسه وبوضوح تام في مقدمة المشهد فيما يلي السهل ذي الرمال الخفيفة، والذي يفصلنا عنها، ووقفت الجبال فيما يليها إلى الشمال الشرقي، على مسافة تتراوح بين ٤٠ إلى ١٠٠ ميل. وهي هضب الدواسر وشهير إلى يساره، وخلف شهير يقع رقش وعلى يساره يقع حوضة وهو أيضاً قريب منا، ثم منخرة فيما وراء رقش ويقع بينهما في الوسط عمود سجيب الطويل الأحمر. وحسب حكمي على ما جمعته من معلومات من الأهالي، فإن بعض هذه الكتل الصخرية من أصل حجارة رملية والبقية من أصل جرانيت أو بازلت.

كان الجو ثقيلاً والسماء معتمة حينما جلسنا بين الجلاميد في تغروه في آخر النهار في الثالث والعشرين من مايو. هطلت زخة مطر قصيرة عند الساعة الرابعة

مساء، وكانت القطرات الساقطة بطيئة، وثقيلة، ولينة كأنها محذرة لنا بالعودة. كما تدافعت عبر السهل من جهة الغرب إلى الشرق كتل صغيرة من الرمال متجهة إلى الأفق الذي يبدو أنه سوف لا يقترب أبداً، بينما تحركت الرياح مروية بين الكهوف والصدوع في الصخور التي من حولنا. وسرعان ما غابت الأرض كلها عن الأنظار بسبب عاصفة ترابية منخفضة العلو حتى بدت خلالها قمم التلال وكأنها شبح في الضباب، ثم انهمرت السماء بصفقات فجائية للرعد بشيراً لها. وانفتحت السماء فوقنا في لحظة وانصبّت الأمطار مما دفعنا إلى اللجوء داخل أحد الكهوف طلباً للحماية، نطيل النظر إلى السهل الذي تحول إلى متاهة لمياه جارية. أوقف السيل التراب المتعلق، غير أننا كنا لا نزال نرى الرمال الطائرة على بعد، معلنة أن الأمطار لم تمتد إلى تلك المناطق.

هطلت الأمطار بغزارة لمدة نصف ساعة ثم توقفت فجأة وحلّت مكانها عاصفة تنبح. خرجنا زاحفين من أماكن اختبائنا وقمنا بقيادة سياراتنا عائدين متحاشين وبحذر المناطق الطرية من الأرض المالحة. اقتلعت العاصفة خيمتي تماماً وألحقت بها ضرراً شديداً يعيق نصبها من جديد، ولذا فقد قضيت الليلة في العراء، أتأمل السحب الثقيلة تتدحرج بعيداً لتكشف عن النجوم. يوجد الكثير من البعوض غير أنه ليس في أسراب، ومما أدهشني نوعاً ما أنه من محدثة وحتى هنا كانت كل الليالي خالية من الندى. أوضح قياس المطر أن ما هطل كان ربع بوصة فقط، جلبتها تلك العاصفة.

ذهبت إلى الأمير لوداعه قبل أن أغادر رنية. كانت ردهته ذات أبعاد ضخمة ولكنها مظلمة ولحد ما متسخة وبلا نوافذ، ما عدا عدداً من منافذ التهوية عالية

على الجدران لسحب دخان موقد القهوة. مررت في طريقي عائداً إلى المعسكر عبر شوارع قرية سوق ورأيت المسجد الجامع.

كان أول أهدافي، بعد أن واصلت الرحلة، هو الوصول إلى تل الريع الهرمي، الذي قد سبق وصفه، ومن عنده عدنا إلى طريق السيارات، متوجهين إلى الحرف وسويِّدة عند تقاطع خنق. بناءً على توجيهات دليلي الجديد -محمد بن عبدالله من قبيلة المراغين- فقد تم دفع الأجر لمطير الدليل السابق مقابل ما قدمه من خدمات، وأصبحت له حرية اتخاذ قرار العودة إلى الخرمة- ثم قمت بقيادة الفريق عبر طريق ملتوٍ فوق مياه ضحلة، وكان سائقي الخاص، محمد، يقود عربة البيك أب على إثري. عبرنا التقاطع بلا مشاكل، وفي الوقت المناسب، لنجد أن أبناء رفاقي المرحين النجديين قد ادخلوا الشاحنة وبشجاعة داخل العقبة المائية وانتهوا بالتوقف عند وسطها واستغرق تخليصها من بطن الوادي ساعتان، بينما قمت ومعي الدليل بالتجول بحثاً عن الطيور.

استفدت من هذا التأخير للاستحمام في ماء يصل عمقه إلى الركبة وكان حماماً منعشاً جداً. كانت هنالك امرأة على مسافة تجاه أسفل الوادي، ترتدي السماق العادي الأحمر اللون، تشرف على سقيا قطيع أغنام وعجول تابعة لها إلى أن حضر أحد الرجال وقاد الأغنام إلى المراعي. كانت صخرة سوله، التي أراها الآن، كأنها جزيرة ينساب الوادي من حولها وعلى جانبيها. بدأت وعلى بعد، وفوق كتلة الكور كتلة صخرية شاخصة يتعذر الوصول إليها، والتي -بناء على الأسطورة المحلية- تأوي ثعباناً يقوم بحراسة كنز مخبأ. يكثر الحديث عن مثل هذه القصة في الجزيرة العربية، وربما في أي مكان آخر. أما فيما يخص الطيور، فإن مقاطعة رنية كانت مخيبة للآمال.

حلّق صقر لم يتم التعرف عليه فوقنا عند قمة الريع والتي رأيت بعض طيور الخطاف وبعض قنابر الصحراء من صنف الحجاز تحلق حولها. وقد جمعت من منطقة الواحة طيور الذعرة الصفراء الهازجة وصائد الذباب. شوهد الأبلق العربي من حين لآخر بين الصخور وكانت طيور البلبل وآكل النحل والعصافير والهدهد ويمام النخيل منتشرة في الواحة.

أعتقد أنني قد رأيت في تغروه زوجاً من طيور الغدَّاف بُنيّ الرقبة غير أن الغداف الشائع في هذه الأجزاء هو المروحي الذيل والذي كان متوافراً في ممر خنق وما جاوره. يجب أن أذكر هنا أن محصولي القمح والشعير قد تم حصادهما في هذه المنطقة وذلك منذ أواخر فبراير وأوائل مارس ويزرعون، في الخريف، الذرة (الدخن). يصل عمق بعض الآبار هنا إلى قامتين فقط، وهي محاطة بأحجار بازلتية لتحجز الرمال التي تم إخراجها من البئر.

تحركنا من جديد بعد الساعة الواحدة مساءً بعد تخليص الشاحنة من الوحل. قادنا منحدر قصير وحاد إلى فجوة في جدار حجري، عبرنا من خلالها إلى قرية مقابل التي تقع عند حافة الصحراء مطلة على الوادي. يتطور هذا الرف شرقاً إلى سلسلة منخفضة عارية تسمى تدم والتي يجري إلى يمينها طريق السيارات، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي في الوقت الحاضر. كان المنظر بكامله محجوباً لحد ما بسبب الغيوم التي نتجت من عاصفة الأمس الليلية، ونقلت زخات من الرياح ذرات الرمال أمامها. اخترق طريقنا سهلاً من طين رملي ناعم وأحمر تتخلله، على مسافات، شرائط مرتفعة قليلاً من حصى أسود، مما نتج عنه تقدماً ملموساً للرحلة، برغم أننا كدنا أن نفقد الطريق في موقع ما حيث كانت هنالك مساحات رملية، مما دعانا للتوقف حتى يقوم الدليل باكتشافه.

برزت الصحراء على يميننا ناحية سلسلة أبي دريعي والتي يجري إلى ما وراءها، وقريباً منا، سلسلة تلال التي يقف فيها ورك منيرة وزب الخثعمي وهذه أسماء ذات دلالة لمعنى غير أخلاقي تكثر في الأسماء الجغرافية في الجزيرة العربية. قيل إن الخثعمي كان رجلاً من قبيلة سبيع ومنيرة امرأة من القبيلة نفسها الكلمتان الأخريتان يشيران إلى أجزاء في الجسم البشري ووضع السمتين بجوار بعضهما البعض يدل على تلميح وغمز. ضاع عنا أثر نخيل الواحة تدريجياً، وبرز أمامنا مشهد جديد لتلال، غير أننا كنا قد قررنا أن نعسكر بجوار فوهة أبي الدفوف الرملية، التي ذكرناها من قبل، والتي وصلنا إليها حوالي الساعة الرابعة مساء، بعد أن غطينا في سفرنا ما يقدر بخمسة وعشرين ميلاً في ذلك اليوم.

يجب أن أوضح هنا أن الإيقاع البطيء والواضح البطء لتقدم رحلتنا إلى الأمام لم يكن بسبب أي متاعب في الطريق، ولكن بسبب نزعتي أن أتوقف مراراً لغرض الملاحظات الجغرافية، لقد تأخرنا خلال هذا اليوم، لمدة ساعتين بسبب حادثة الشاحنة، غير أنه، في كل الأحول، لم يكن من المتوقع منا أن نغطي مسافة أكثر مما قد فعلنا.

قررت أن أتفحص الغموض الذي يلف أبا الدفوف، فما أن توقفنا عن المسير عند أسفله، حتى تسلقته ومعي دليلي إلى منحدره الرملي، تاركين بقية الرفاق يشرفون على إعداد المعسكر وإعداد وجبة العشاء. كانت عملية الصعود صعبة نسبياً برغم أن الانحدارات السفلى كانت ذات أشجار فيها الغضا والرمث وحشائش نجيلية –قصباء بدون الاستطراد في ذكر الكثير عن تلك الزهرة الجميلة الصفراء المميزة للصحاري الرملية الصافية والتي تسمى نبات الزهر. صعدنا على امتداد حافة كحد السكين حيث بدا لنا أن الصعود سيكون سهلاً مقارنة مع

المنحدرات الأخرى على أي من الجانبين. كان ارتفاع التل حوالي ٥٠٠ قدم أو أقل قليلاً، واستغرق وصولنا إلى قمته أكثر من نصف الساعة. كانت هنالك رياح شرقية قوية تهب دافعة ذرات الرمال نحو القمة، وظهرت الشمس منخفضة جداً وبدت تطل من خلال الغيوم في ضعف شديد وكأنها مريضة.

وتقع على مسافة قليلة إلى الشرق من موقعنا هضبة صغيرة تسمى سويقة، والتي قيل إنها تدل على موقع قرية قديمة، يعزونها كغيرها من هذه الأساطير إلى أسطورة بني هلال الذين كان يتكرر العثور على حجارة رحاهم وأماكن نيرانهم، كما قيل لي. كانت القرية موقعاً غريباً للمعيشة، وذلك لأنها كانت تقع في وسط الجزء الشمالي لشريط طويل من الرمال تسمى نفود حنجران الذي يمتد بعيداً ناحية الجنوب من جوار سلسلة جبال كولان المثلمة القمم كأنها المنشار والتي تفصلها عنها مسافة قصيرة من الرمل وتسمى عريق الوزران.

يقع جزء كبير من رحلة الغد ناحية الغرب وموازياً إلى رمال حنجران، كما تكون أكتاف كور برحة تطوقنا من ناحية الغرب، ذلك لأننا قد خرجنا الآن إلى سفوح تلالها وإلى كتلتها الصخرية الرئيسة الشرقية، التي تبدأ بالأراضي الرئيسة: مسيجيرة وأم سريحه.

تقع صخور حمَّان السوداء، والمغطاة بالرمال، قريباً من هنا إلى جهة جنوب الجنوب الغربي، مغطية مساحة تقدر بنصف ميل مربع. وتقف، بعيداً ناحية الجنوب الغربي، العلامة الأرضية خشم الكور معلَّمة الكتف الجنوبي الشرقي لكتلة كور برحة والتي تتجه، من تلك النقطة، ناحية الجنوب الغربي. كما تشاهد سللي في عتامة من خلال الغمام وهو يقع إلى ما وراء كولان غير أن قرى رنية لم تكن مرئية لنا.

خيب ظني هذا الكوم الكبير من الرمال الذي بدا وكأنه لا يرغب في إطلاق الموسيقى التي كنت قد توقعتها[١]، وحتى بعد محاولاتنا دفعها لذلك بتحريك كتل الرمل إلى أسفل منحدراته. وقد تخلينا عن المحاولة وقررنا العودة للمعسكر، أنا ومحمد، وأخذنا نتزحلق عن طريق المنحدر الشديد، حتى نوفر على أنفسنا مشقة السير إلى أسفل سالكين الطريق الذي صعدنا به نفسه. كان السفح، حقيقة، منحدراً وعراً وكانت الرمال ناعمة بالدرجة التي لا تسمح لنا بالانزلاق، ولذلك لجأنا إلى تحريك أيدينا وأرجلنا بقوة ليساعدنا ذلك على الهبوط والحركة فوق الرمال.

بدأت بعض الظواهر تقع حينما هبطنا بهذه الطريقة إلى حوالي ٣٠ أو ٤٠ قدماً. أطلقت كل انزلاقة أزيزاً واضحاً ومرتفعاً كأنه همهمة مكينة السيارة – بلا شك لا يوجد في هذا الأزيز ما يشبه إيقاعات الطبل غير أنه تواصل لثوان قليلة وكنا حينها ننزلق بالفعل وحتى إذا ما توقفنا، توقف الصوت. وحينما شرعنا في إنزلاقة أخرى، ظهر الصوت مرة أخرى. بدا لي أن الصوت يبث من كعوب رجلي أثناء شقها الطريق خلال الرمل، ولكن الصوت الذي أصدره محمد بالطريقة نفسها كان مختلفاً عن الصوت الذي صدر مني. فشل كلانا في إنتاج الكورس العام الذي تأكد لنا حدوثه في نايفة في الربع الخالي. ربما أثرت الأمطار الأخيرة على الإيقاع لموسيقية الرمال، ولكن نجاحنا المحدود أبرز السبب في تسمية التل. يجب أن أذكر أن الرياح كانت تهب من الجانب الخلفي للمنحدر المنقعر الذي كنا نتزحلق عليه وقد يكون هذا سبباً إضافياً لفشلنا في الحصول على نتائج كاملة.

(١) تحدث فيلبي بتوسع عن ظاهرة الصوت الموسيقي الذي يحدثه تحرك الرمال في كتابه (الربع الخالي). (المراجعون).

خلعت حذائي وجواربي حينما وصلنا إلى المنحدرات السهلة السفلى، وذلك لأستمتع بالسير حافياً فوق الرمال ناصعة البياض. كان جميلاً أن نرى نباتات الصحراء الحقيقية مرة أخرى، متضمنة، إلى جانب تلك التي ذكرت من قبل، العلقا، والنصى، وسبط، ووثنده. كما شاهدنا غزالاً منعزلاً أثناء اليوم، وقد أضفت إلى كيس طيوري طائر صرد رمادي. كانت الليلة لطيفة والقمر هلالاً والنجوم في عظمتها، غير أن درجة الحرارة الصغرى كانت ٧٣ درجة.

صحونا مبكرين يوم الخامس والعشرين من مايو. وواصلنا سفرنا سريعاً بعد الساعة السادسة صباحاً، فوق سهل رملي وقد كانت القيادة فوقه جيدة. أفزعنا بحركتنا ثلاث غزالات كانت فوق جانب من الأرض الصخرية الصعبة -هضبات الأرانب-، وتقع على بعد خمسة أميال، وذلك أثناء عبورنا لسلسلة صغيرة عبر الطريق، ولما كانت الشاحنة على استعداد للمغامرة، فقد انطلقت المطاردة للغزلان. كان ابن فرج بارعاً في الرماية وأصاب إحداها -أنثى من النوع الأدمي- أكثر غزلان الصحراء شيوعاً. اقتربت صخرة الكور من نفود حنجران، وبعد أن قطعنا مسافة تقدر بـ ١٢ ميلاً تقريباً، كانت الفجوة بين المرتفع الأرضي الشامخ - خشم الكور على يميننا، وبين الرمال دون الميل الواحد.

كنا نسافر ناحية الغرب من شريط جنوبي إلى هذه النقطة، غير أننا التففنا بعد ذلك وبعنف جهة الجنوب الغربي وأصبح الجانب الجنوبي لكور على يميننا ترافقنا الرمال مع وجود تلال صخرية منخفضة على حافة كور مكوَّنة ممراً. توقفنا بعد ثلاثة أميال عند بئري جهيلة إلى جانب بئر ثالث كان على مسافة ليست بالبعيدة في الوادي. يوجد الماء في هذه الآبار عند عمق ١٣ قامة وقد شيدت بمواد بازلتية، وصهاريجها عريضة نسبياً. تقول الروايات إن بني هلال حفروا هذه

الآبار، غير أنها الآن ملكاً لآل محمد من سبيع. توجد عند طرف كور مجموعة شامخة من أربع قمم عالية متقاربة يسمى أحدها ديًّا وتسمى الثلاثة الأخريات مجتمعة جهيلة على اسم الآبار. وتقع أمامنا، ناحية الجنوب الغربي، سلسلة جبال حشرم وقد ورد آنفاً أنها نهاية السهل الذي يفصل بين شايل من الكور على الجانب الأيمن لوادي رنية. يتسع الممر الآن إلى الخارج ليضيف بعداً جديداً للبلاد وعلامات أرضية جديدة.

حضر إلينا صبي من سبيع، وكان يرعى إبله بجوارنا، لقضاء بعض الوقت معنا بجوار الآبار وأبدى بعض الاهتمام بمتابعاتي الخاصة بالطيور. كنت قد وضعت في حقيبتي قنبرة صحراوية وكنت أطارد طائر الأبلق العربي خسلة، حينما علق الصبي على ذلك بما معناه أنني لن أحصل على هذا الطائر بالذات أبداً. وحقيقة فقد فشلت أن أمسك به. أفادني الصبي بأن هذه الطيور يتملكها الجن ويتعذر إيذاؤها وأنها حينما يقوم الناس لأداء صلاتهم فإنها تأتي وتشقشق فوق رؤوسهم. اسماها الصبي عبيسة ويبدو أن هذه الكلمة تعني «الجافة» ربما إشارة إلى بيئتها الصحراوية. كان المجرى الصغير للسيل والمنحدر من خلال مجموعة من القمم العالية مملوءاً بالجنبات الخفيفة مع بعض أشجار الطلح والسرح ولكن مياهه، إن كانت لا تزال موجودة فيه، فهي لا تصل إلى أبعد من الرمال المواجهة له.

واصلنا القيادة فوق سهل ضخم، من رمال خفيفة مع مساحات تكسوها شجيرات تالي خضراء، مثل الحمض. كان هنالك عدد معتبر من الجمال يرعى هذا المكان، وتوقفنا بالقرب من أحد مجموعاتها للحصول على بعض اللبن بعد الموافقة التامة من راعيها والقائم عليها والذي ينتمي إلى الفراعنة من سبيع، لقد كان لبناً لذيذاً، ذا رغوة، وقد قام ابن فرج وزملاؤه بحلبه من الضروع الضخمة

في طاساتنا. وجدنا درب السيارات ممحواً فـي أجزاء عديدة في هذا السهل خفيف التربة، ولـكن لم تكن هنالك صعـوبة في الاحتـفاظ بالاتجاه العـام المطلوب، كنا دائماً وعلى فترات نعثر على الطريق القديم في مكان ما إلى جوارنا.

قطعنا حوالـي ٢٧ ميلاً الآن منذ بداية السـفر، إلا أن ملاحظـتنا إلى حوالي نصف دستة مـن خيام البدو، دون إطالة الحديـث عن خيمتين أخريين بـيضاويتين لبيت متـنقل لبعض أهل المدن الذين قد غادروا رنيـة متجهين إلى بيـشة في اليوم السابق، إلى جوار مجموعة مناسبة من أشجار الطلح الشبيهة بالمظلة، أغرانا، كل هذا، للتوقف لتناول وجبة منتصف النهار ولننال بعض الراحة.

أعددت سريري تحت شجرة كبـيرة بينما تراخى رفاقي في ظلال سياراتهم أو في خيامهم والتي كانوا قد استعجلوا نصبها. أعددنا لحم صيد مشوي، مقطعاً إلى قطع صغيرة، لزيادة الإحساس بالرفاهية والتراخي. إلى جانب الآثار التي أحدثتها جرعات لبن الإبل الكبـيرة. كانت درجة الحرارة فـي الظل، تحت شجرتي، ١٠٠ درجة بـالضبط. وكـان الجو حاراً، وبـلا هواء، خلال السـاعة الأخيـرة لقيـادتنا السيارات. كانت الرمال من تحت أقدامنا تبـدو كالجمر برغم نعال المطاط لحذائي، إلاَّ أنه قد هب علينا، سـريعاً بعد الظهـر، نسيم بارد، واستـمتعت خـلاله براحة قصيرة.

لاحظت عش طائر صرد حينمـا استيقظت، مبنياً على الأغـصان المورقة فوق رأسي، ولا بد -في اعتقـادي- أنني قد صحوت على صـرخات الطائرين الأبوين ربما بسبب نكبة أسرية تخـصهما. فقد سقط صغـير لم ينبت له نصف ريشة بعد، وهو غير مـتمكن من الطيران، إلى خـارج العش غير أنه يستطيع فـقط الجري بلا

هدف محدد. كانت محاولاتي للإمساك به -لتزويد مجموعتي- مسلية بما فيه الكفاية، ذلك لأن الصغير قد استلقى على ظهره بتحفز وواجهني بمنقارٍ ضارٍ جداً بينما واصل الأبوان، دون اعتبار لما قد يصيبهما من خطر، في إرسال ترداد لصحيات من توبيخ قاس، موجهة لي أنا من فوق الأغصان التي كانت فوق رأسي مباشرة. غير أن العِلْم يجب أن يُخدم وأن هذا الطائر الصغير لا بد له وأن يدفع الثمن علماً بأنني تركت شقيقه وحيداً في العش لتعزية الوالدين الحزينين.

لاحظت عند هذه النقطة أنني قد وصلت إلى الحدود الحقيقية لمنطقة سبيع وعلى وشك الدخول إلى منطقة بيشة، والتي تصب في واديها كل المسايل التي اعترضت طريقنا. لذلك سأنهي هذا الفصل، بوصف موجز للمنظر المحيط. كانت البقعة التي عسكرنا فيها قريبة جداً من قمة صخرية تسمى عريض، بينما تلك القريبة منا، ناحية الجنوب والجنوب الغربي، فهي بالتالي، قمة وسيم الجرانيتية وقمة الجرانيت القائمة للصخرة المسماة ضرب الرمثة.

وتنهض خلفنا، ناحية الشمال الشرقي، تلال جهيلة وتلال خشم الكور بينما إلى جهة شمال الشمال الشرقي وليس بالبعيدة منا تجري السلسلة الجبلية البارزة المنعزلة والتي تسمى حشرماً ذات القمة المركزية وتوجد أرض مرتفعة بارزة عند حدودها الشمالية. ويقع تل ذهوة ناحية الجنوب الشرقي، على بعد، وتل آخر هرمي كبير أسود يسمى شمت فيحان إلى البعيد تجاه شريط وادي بيشة. ويقع ناحية الجنوب الغربي عدد من السلاسل أو مجموعات من التلال هي: عديمه، مدورا، رنفان، ومبدا، ونعام، ومن ورائها يوجد جفار الذي يتاخم وادي بيشة نفسه على الجانب البعيد، بينما وإلى مسافة أبعد، جهة الجنوب الغربي توجد السلاسل الجبلية الشامخة وغير الواضحة لوادي الميه وأم غربان.

وتظهر القمة الحـادة لخضعة إلى البعيد تجاه الغـرب، والتي يبدو أنها هي آخر موقع في مـرتفعات شـايل الذي ملأت كتلتـه العظيمة الفـجوة الممتـدة من غرب الشمال الغربي إلى الشمال الغربي.

كل مـا تبقى كـان ذلك السهل الواسع المـسطح الذي وصلناه الآن وسنواصل السفر فوقه لأميال عديدة. كان المنظر، في جملته، موحشاً وغير ملهم.

obeikan.com